أعلام العرب

٦٠

المقَّرى

صاحب نفح الطِّيب

بقلم

محمد عبد الغني حسن

الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة

لا أدرى ما الذى شدنى الى الكتابة عن هذا الرجل المغربى العجيب ، الموسوعى النظرة ، الذى جمع بين الفقة والحديث والتاريخ والأدب والمحاضرة والمسامرة والوعظ والارشـــاد ، فكان فى ذلك كله نادرة من نوادر الزمان ؟

ولقد بدأ اهتمامى بأبى العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى من سنوات عديدة ، منذ قرأت له « نفح الطيب » فى أجزائه الأربعة الضخمة ، فكنت أقف فى كثير من المواضع ، وتخرج بى استطرادات الرجل الكثيرة المتعاقبة الى فنون من الأدب ، وشعب من المسائل ، وذخيرة من التاريخ ، ورياض من الأسمار ، وطرائف من الأشـــعار ، فأعجب من هـــذه العقلية الموسوعية ، التى تفيض كالبحر ، وتندفق كالسيل ، وتجمع من شتيت الأخبار ما تفرق ، وتضم ما اختلف .

وزاد من اعجابى بنفح الطيب وصاحبه أن الكتاب جمع من تاريخ الأندلس ومن تاريخ المسلمين فيها ما لا تجده فى كتاب غيره . وقد أتاح له تأخر زمانه فى القرن الحادى عشر الهجرى أن يصل من أخبار الأندلس ما انقطع بعد النكبة التى أصابتها بل أصابت الاسلام فى بقعة عربية كريمة كانت قطعة من الأرض

العربية فى أوروبا ، وظلت على ذلك بضعة قرون ، الى أن تأذن الله لشمسها أن تأفل ، ولملكها أن يزول .

وقل أن تجد فى كتاب آخر عن الأندلس ما تجده فى « نفح الطيب » فقد أتيح للمقرى من الكتب ما لم يتح لنا الى اليوم أن نعثر عليه . ووقع له من المصادر ما لاوجود له اليوم ، وبهذا استطاع أن ينقل نصوصا كثيرة لا نستطيع الى الحصول على أصولها اليوم سبيلا . وقد كان للرجل عناية بالغة بالكتب ، واطلاع دائم عليها ، وقوة عظيمة فى حفظها والرواية عنها ، وأفاد من خزانة الكتب الخاصة بأبى المعالى زيدان السعدى — سلطان المغرب فى وقته — فائدة عظيمة . وقد كانت تلك المكتبة تحتوى على ثلاثة آلاف سفر من أنفس الكتب .

ولقد كان فضل « المقرى » ، الذى لا يجحده الا منكر ، أنه استطاع فى « نفح الطيب » أن يصون لنا نقولا ونصوصا كثيرة . واذا لم يكن له فضل الناقد المؤرخ ، فله فضل الحافظ المدون . وهو فضل لا يستهان به ، وخاصة فى تاريخ الأندلس التى ضاع كثير من تاريخها ومعالمها على اثر المحن والنكبات المتعاقبة التى توالت عليها ، حتى خرج أهلها منها الى العدوة الأفريقية بالمغرب مجردين من كل شىء الا من ذكريات أمسهم الدابر ، وعزهم الغابر ...

ولم يكن المقرى شاهد عيان لنكبة العرب والمسلمين فى الأندلس ، ولكنه جاء الى هذه الدنيا بعد المحنة بما لا يزيد على

قرن من الزمان . ولعل أصداءها الحزينة كانت لا تزال على عهده قرن فى المغرب الذى أنجب هذا المؤلف العظيم . بل لقد شهد بعينيه فى مدينة فاس ألوف العرب الذين أجبروا على التنصر أولا، وعلى الخروج من أرضهم الطيبة ثانيا ، وكان ذلك فى سنة ١٠٢٧ هـ ١٦٠٨ م قبل أن يغادر وطنه المغرب فى سبيله الى القاهرة والشرق سنة ١٠٢٧ هـ .

وما كان أروع المقرى وهو يصف لنا فى سطور قليلة — ولكنها مزدحمة بالمعانى — خروج آخر سلاطين الأندلس منها بعد ما ضاع ملكه ، ونزوله بمليلة ، ثم بمدينة فاس (بأهله وأولاده ، معتذرا عما أسلفه ، متلهفا على ما خلفه ، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها ودخلتها ...)

وما كان أشد الأسى فى عبارته ، وهو يصف لنا بعد ذلك ذرية سلاطين الأندلس ، وهم بمدينة فاس بالمغرب على عهده (يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون من جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ..) .

ومن عجيب قضاء الله أن أبا العباس المقرى الذى أفاد كل مؤرخ للأندلس ، وكل كاتب عنها ، من كتابه « نفح الطيب »، لم ينل من عناية المؤرخين المعاصرين والمحدثين الا قليلا ، لا يفى بفضله ، ولا يجزىء فى الترجمة له ، والتعريف به . فكان من ذلك فصل للأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « تراجم اسلامية

شرقية وأندلسية » . وكان من ذلك مقال فى مجلة الثقافة ـــ العدد ٦٣٠ ـــ للأستاذ على أدهم ، وكان من ذلك رسالة أصدرتها دار الكتب الشرقية بتونس للأستاذ الحبيب الجنحانى سنة ١٩٥٥ .

وقد حملنى ذلك التقصير فى حق « المقرى » الذى أقام فى القاهرة أربعة عشر عاما ملأها وملأ أزهرها المعمور بعلمه ودروسه، وصنف فيها « نفح الطيب » كله من أوله الى آخره ـــ وهو بعيد عن كتبه ومراجعه فى المغرب ـــ ونادته منيته فيها حيث دفن بثراها الطاهر فى قرافة المجـاورين ـــ أقول حملنى ذلك وحملنى غيره من اعتبارات الأخوة بين المغرب العربى والمشرق ، أن أكتب هذه الدراسة عن هذا الرجل ، وفاء له ببعض الدين الذى أسلفه الى القاهرة ، بل الى بلاد العرب والأسلام .

وأرجو مخلصا أن يرضى القارىء العربى الكريم عنها ، وأن يلمس الجهد الذى بذلته فيها وبالله التوفيق .

محمد عبد الغنى حسن

ملامح عصر

يجدر بنا قبل أن نصور العصر الذى عاش فيه المقرى فى المغرب حتى خرج منه راحلا الى الشرق سنة ١٠٢٧ هـ أن نرتد قليلا الى القرن العاشر الذى ولد صاحبنا فى العقد الأخير منه على الراجح .

وقد شهد العقد الثالث من القرن العاشر الهجرى استيلاء السلطان سليم العثمانى على مصر والشام وبذلك صارتا ولايتين عثمانيتين . وكان ذلك بداية الاحتلال التركى فى الشرق العربى .

وقد اتسعت حملات العثمانيين فى أخريات عهد سليم ، وعهد ابنه سليمان القانونى ، فامتدت الى الشمال الأفريقى بفضل قرصنة أسرة بربروس ورئيسها خير الدين الذى كان أكبر قائد بحرى فى وقته . وما زالت مطامع الأتراك تمتد فى أفريقيا والمغرب حتى استولى حسن بن خير الدين التركى على تلمسان من أرض الجزائر سنة ٩٥٢ هـ . وتلمسان هى المدينة التى كانت مقر آباء المقرى بعد رحيلهم اليها من « مقرة » ، كما كانت أرض ميلاده . وباستيلاء الأتراك على تلمسان انقرضت دولة بنى زيان منها ، وعز على السلطان «أبوعبدالله الشيخ» سلطان الدولة السعدية بالمغرب أن يستولى الترك على تلمسان والمغرب الأوسط ، وهم أجانب

عن البلاد دخلاء عليها . فجرد جيشا لاسترداد تلمسان . ونجح فى ذلك فدخلها سنة ٩٥٧ وطرد الأتراك منها . ولكنهم عاودوا الكرة وانتهت الى أن صارت فى أيديهم .

وكان حادث استيلاء الأتراك على تلمسان سببا فى توتر العلاقات بين السلطان العثمانى وسلطان المغرب ، وكثيرا ما قام الوسطاء بالسفارة بينهما ، كما كان أمر « أبى عبد الله الخروبى » الطرابلسى نزيل الجزائر . وامتدت مطامع الأتراك الى فاس من بلاد المغرب ، حتى لقد عاونوا على قتال السلطان أبو عبد الله الشيخ وطرده من فاس ، ولكنه استطاع أن يعود اليها ويستولى عليها سنة ٩٦١ هـ . ويصفو له أمر المغرب .

ولا بد أن نشيد هنا بشجاعة السلطان « أبو عبد الله الشيخ » ووطنيته وقوميته العربية . فقد كان من أوائل أهل المغرب الساخطين على الحكم العثمانى فى مصر والتدخل العثمانى فى الشمال الأفريقى ، وكان ناقما على السلطان العثمانى سليمان القانونى ، وكان يطلق لسانه فيه بما كان يصل اليه وتنقله العيون عنه . حتى لقد بلغه قوله : (لابد أن أغزو مصر ، وأخرج الترك من أجحارها ... !) وبلغ من وقاحة السلطان سليمان العثمانى وطموحه الى الاستيلاء على المغرب أنه لما انقضت دولة الوطاسيين ، واستقر الأمر لدولة السعديين بالمغرب ، كتب الى « الشيخ » يهنئه بالملك ، ويطلب منه أن يدعى له على منابر المغرب ! ويبعث له رسولا بذلك . ولما سمع « الشيخ » كلام

السلطان العثمانى على لسان الرسول غضب ، وحمى أتفه ، وأبرق وأرعد : فلما طلب منه الرسول الجواب أجابه محتدا : (لا جواب لك عندى حتى أكون بمصر ان شاء الله ، وحينئذ أكتب الى سلطان القوارب !!) يعنى سلطان قراصنة البحار !! ولقد جزع الرسول من غضب « الشيخ » وخشى أن يصيبه منه شر ، فخرج خائفا يتلفت ...

وكانت نتيجة موقف « الشيخ » من السلطان سليمان القانونى انه ما زال بهذا الوطنى العظيم حتى دبر له من الأتراك من قتلوه فى وطنه ، وبعثوا برأسه اليه فى الآستانة ، فأمر بأن تعمل له شبكة من نحاس ، ويوضع فيها ، ويعلق على باب القلعة ...

ولم يزل الرأس معلقا الى أن جرت الأحداث بأن يفد الى الآستانة ولدا أبى عبد الله الشيخ المقتول ، ليستعديا السلطان العثمانى على ابن أخ لهما ينافسهما فى الملك .. !

وعاود الاتراك الكرة على فاس للاستيلاء عليها بقيادة حسن خير الدين بربروس ، ولكن الهزيمة كتبت عليهم . وكان المتنازعون على الملك من أبناء أسرة « الشيخ » يلجأون الى أعدائهم الأتراك للاستعانة بهم على بعضهم بعضا ، كما كانوا يلجأون الى أعدائهم من غير المسلمين — من الأسبان والبرتغال — لذلك الغرض نفسه . فنسوا فى سبيل الملك أوطانهم ، بل نسوا دينهم ، مما جر عليهم البلاء والانقضاء . وكان نزاع الأخوة وأبناء العم والأبناء من دولة السعديين بالمغرب ظاهرة

تلفت النظر ، حتى استغلها العــدو العثمانى : والعــدو المسيحى الآخــر القــريب منهم لمصــلحته . ولم تستطع هــذه الدولة أن تهدأ بعض الهدوء النسبى الا فى عهد السلطان أبى العباس أحمد الملقب بالمنصور ، والمعروف بالذهبى ، بسبب كثرة الذهب فى عهده بما فتح الله عليــه من التملك والفتوح فى قلب البــلاد السودانية ، (حتى كان المنصور لا يعطى فى الرواتب الا النضار الصافى ، والدينار الوافى . وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافى ، دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلى ...) [1] وقد أدرك صاحبنا المقرى عصر المنصور الذهبى الذى توفى سنة ١٠١٢ هـ . ولعله لقيه فى زيارته الأولى لفاس سنة ١٠٠٩ ، وان كانت هجرته الأولى الى فاس للتوطن بها لم تكن الا سنة ١٠١٣ ، أى بعد وفاة المنصور بعام واحد .

وقد شهد المقرى فى عهد المنصور السعدى أمورا كثيرة الا أن ذلك كان فى أخريات عهد المنصور ، فقد كان المقرى قبل ذلك جنينا فى ضمير الغيب .. ولعل أغرب ماشاهده المقرى فى عهــد المنصور هو ثورة ولده المسمى « بالمأمون » عليه ، وخروجه على والده بفاس ، وتصميمه على الاستعانة بالأتراك فى تلمسان على والده السلطان ، والاستجارة بهم ، للتخلص من أبيه ، والاستيلاء على الملك بدلا منه . وكان ذلك سنة ١٠١٠ هـ — أى قبل رحيل المقرى الى فاس بثلاث سنوات .

---

(١) الاستقصا ـ للسلاوى ـ جـ ٥ ص ١٢٥ .

على أن المقرى شهد فى عصر خلفاء السلطان المنصور السعدى أمورا كثيرة من الفتن والمنازعات والحروب الداخلية بينهم ، طمعا فى الملك ، وتنافسا على السلطان . وكان فى مراكش جبهة ، وفى فاس جبهة ، ينشب من كل منهما الصراع المرير بين أبنـــاء البيت الحاكم الواحد . حتى السلطان أبو المعالى زيدان بن المنصور ، والذى كان المقرى فى كنفه مقربا منه مستفيدا من خزانة كتبـــه الخاصة ... هذا السلطان انحرفت عنه مراكش بجبهتها المعادية له. وكان ما كان من أمر فتنة العرائش التى تجد تفصيلها هنا فى فصل خاص .

هذه لمحة خاطفة عن الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيـــه المقرى بالمغرب . ولقـــد كان أعداء المسلمين من الأســـبان والبرتغاليين يفيدون من هذه الاضطرابات والفتن والمنازعات بين الأبناء والأخوة وأبناء العم على السلطان حتى انتهى الأمر بسقوط دولة السعديين وقيام دولة أخرى بالمغرب .

وليس المهم أن تسقط دولة وتقوم أخرى ، ولكن المهم أن هذه الأحداث المتتابعة لم تدع لبلاد المغرب سبيلا الى الهدوء ، والاستقرار ، والتقدم الى الأمام .

بين المولد المغربي والنسب القرشي

من هو المقرى ؟

هو شـــهاب الدين أحمـــد بن محمد بن أحمـــد بن يحيى ابن عبد الرحمن بن أبى العيش بن محمـــد المقـــرى . ويكنى أبا العباس ، ويلقب بشهاب الدين .

وهذا النسب الذى تنقله هو عن صاحب « خلاصة الأثر » . أما نسبه ابتداء من جده أبى عبد الله محمد الذى كان من أكابر شيوخ الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب ، فنحن ننقله عن المقرى صاحب نفح الطيب الذى نقله عن كتاب « الاحاطة » ، كما جاء فيه : (محمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر ، بن يحيى ، ابن عبد الرحمن ، بن أبى بكر ، بن على القرشى المقرى) [1] .

وأنت ترى من هذه النسبة التى ذكرها لسان الدين بن الخطيب الأديب الأندلسى الكبير أنهم قرشيون : وأنهم ليسوا من أهل المغرب وأصحابه الأولين ، بل هم وافدون عليه من الجزيرة العربية فيمن وفد الى الغرب والأندلس .

والطريف فى أمر هذا النسب القرشى أن صاحبنا أحمد المقرى

---

(١) نفح الطيب جـ ٣ ــ ص ١١٠ .

يشير الى أن أحد المغاربة لما اطلع عن نسخة كتاب « الأحاطة » الذى فيه هذا الكلام ، كتب على هامش الكتاب فى هذا الموضع عبارة تفيد أن ابن الخطيب واهم فى ذكره لهذا النسب القرشى . ولم يزد هذا المعلق المغربى على هذا أكثر من قوله أمام هـذا الموضع من الاحاطة : القرشى وهم .

ولم يزد هذا المعلق على هذه الجملة القصيرة شيئا ، ولم يقل من أين جاء الوهم الى هذا النسب . وقد أتيح لهذه النسخة من كتاب الأحاطة أن يطلع عليها عالم قديم من علماء المغـرب اسمه أبو الفضل التلمسانى ، ووقف عندما علق به المغـربى من انكار النسب القرشى على بيت المقرى . فكتب تحته ما نصه : (بل صحيح ! نطقت به الألسن والمكاتبات والأجازات ، وأعربت عنه الخلال الكريمة . الا أن البلدية ـــ أى المشاركة فى البلد الواحد ـــ يا سيدى أبا عبد الله والمنافسة تجعل القرشية فى امام المغرب أبىْ عبد الله المقرى وهما ! والحمد لله) (٢) .

ولم يسكت صاحبنا أحمد المقرى على هذا الأنكار لنسبهم القرشى من بعض المغاربة . فأتى بتعليق أبى الفضل التلمسانى السابق وزاد عليه قوله : (وممن صرح بالقرشية فى حق الجـد المذكور ، ابن خلدون فى تاريخه ، وابن الأحمر فى « نثر الجمان » وفى « شرح البردة » عند قوله :

---

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١١٠ .

لعل رحمة ربى حين ينشرها .

والشيخ ابن غازى ، والولى الصالح سيدى أحمد زروق ، والشيخ علامة زمانه سيدى أحمد الوانشريشى ، وغير واحد . وكفى بلسان الدين — يعنى لسان الدين بن الخطيب — شاهدا مزكى) .

وقد جمعت أسرة المقرى القديمة الى شرف النسب القرشى ، كثرة الولد ، وارتفاع الأحوال ، وسعة الأموال . ويشير أبو عبد الله محمد جد المقرى الى هذا ، واصفا كيف اشتهرت ذرية جدهم عبد الرحمن بالتجارة ، فمهدوا طريق الصحراء فى المغرب بحفر الآبار ، وتأمين التجار . وكان لهم من سمات الامارة ما جعلهم يتخذون لهم طبلا عند المسير ، وراية تقدم على رواحلهم اشارة اليهم ، وتخصيصا بهم . واتخذوا بأقطار المغرب الحوائط الواسعة المملوءة بأشجار الفاكهة ، واتخذوا الدور والمصانع ، وتزوجوا النساء ، واستولدوا الاماء .. واتصل هؤلاء المقريون بأمراء أفريقية وسلاطينها ، فتذللت لهم الأرض للسلوك — كما يقول جد المقرى — (فخرجت أموالهم عن الحد ، وكادت تفوق الحصر والعد) .

ولكن هذه النعمة الوافرة ، والثروة الطائلة لم تدم ، فأسرف الأبناء فى النفقة ، ولم يقوموا بأمر تثمير المال كما قام آباؤهم ، وأصابتهم الفتن المتوالية التى كان المغرب لم يسلم منها ، وتناقص حالهم وأمرهم ، الى حد أن أبا عبد الله محمد — جد المقرى —

رأى بعينيه تناقص حال أجدادهم فى عهده ، فقال : (فهأنذا لم أدرك من ذلك الا أثر نعمة ، اتخذنا فصوله عيشا وأصوله حرمة ؛ ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب ، وأسباب كثيرة تعين على الطلب ..) .

وما زال الحال يتناقص بهذه الأسرة القرشية الكريمة الى أن جاء عهد أحمد المقرى المترجم له ، فوجد المال قد ضاع كله . ولكن السيادة والشرف لم يضع ، ووجد آثار المكتبة العظيمة التى أشار اليها جده ، فأفاد منها كما أفاد بها أبوه من قبله . وان كان الله شاء أن يبعد عن هذه الخزانة الحافلة بالكتب حين رحل الى المشرق ، وأن لا يعود اليها ، فقضى بالقاهرة [٣] .

وقد اهتم المقرى بأخبار جده أبى عبد الله . وأورد له فى الجزء الثالث من النفح ترجمة طويلة نقلها عن « الاحاطة » كما نقل تراجم شيوخه الكثيرين الذين أخذ عنهم فى المغرب . أو لقيهم بتونس ، أو قابلهم فى مصر والحجاز والشام وبيت المقدس ؛ ويربى عددهم على الثلاثين شيخا . ومنهم أبو حيان الغرناطى العالم النحوى الكبير الذى لقيه بمصر (فرويت عنه واستفدت منه) .

(٣) كثيرا ما يشير المقرى الى كتبه الكثيرة التى تركها وراءه بالمغرب ، والى أنهـــا ليست فى يده بمصر ساعة تأليفه النفح ، فيقول فى جـ ٣ ص ١٧٤ : (وقد ملكت بفاس مجلدا ضخما بخط مؤلفه ، وهو أحد علماء مدينة فاس ، ألفه برسم مولاى الجد ، وسماه بالزهر الباسم ، وأطال فيه فى مدح مولاى الجد ، والثناء عليه ، والتنويه بقدره ، وذكر محاسنه ، ولم يحضرنى الآن ، لكونى تركته مع جملة كتبى بالمغرب .

ولقد كان جـد المقرى رجلا عالما جليلا مباركا ، فشيوخه كثيرون كما ذكرنا ، وتلاميذه كثيرون مشهورون فى عالم الفقه ، ودنيا الأدب ، وروضة الشعر ، وساحة التاريخ ، ومجال التصوف ومنهم الوزير لسان الدين بن الخطيب ، والوزير الأديب عبد الله ابن زمرك ، ومحمد بن سعيد الصنهاجى عالم الفقه وحجة القضاء ، وابن خلدون المؤرخ وصاحب المقدمة المشهورة ، وأبو اسحاق الشاطبى ، وعبد الله بن جزى ، ومحمد بن عباد الرندى الولى الشهير وشارح حكم ابن عطاء الله السكندرى . ويعتز المؤرخ ابن خلدون بتلمذته على أبى عبد الله محمد جد المقرى ، فيعبر عنه تارة بصاحبنا ، ويعبر عنه فى بعض المواضع بشيخنا (٤) .

ويشير أكثر المؤرخين والعلماء المغاربة الى جـد المقرى فى مؤلفاتهم ، مما يؤكد انه لعب دورا هاما فى تاريخ الحركة العلمية بهذا القطر الشقيق منذ بضعة قرون . وقد حفظ له المغرب هذا الجميل ، فألفت فى سيرته ثلاثة كتب ، أولها : « النور البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » لأبى عبد الله بن مرزوق شيخ شيوخ المغرب فى وقته . وثانيها كتاب أبى العباس الوانشريشى فى التعريف بالمقرى ، وثالثها كتاب « الزهر الباسم » لأحد علماء مدينة فاس الذى تقدمت الاشارة اليه فى هذا الفصل .

ولا بأس هنـا أن نستطرد الى لقاء جد المقرى مع المؤرخ ابن خلدون ؛ فقد كان لقاء طريفا بالقاهرة ، وقد كان جد المقرى

---

(٤) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٧٥ .

نازلا بها فى خلال رحلته الطويلة الى المشرق . وندع ابن خلدون نفسه يصور لنا هذا اللقاء الذى دار فيه الحديث حول عظمة مدينة القاهرة (حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسى الملك . تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران ، واتساع الأحوال . ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أما عبد الله المقرى ، فقلت له كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام) (٥) .

وقد امتاز جد المقرى بالحكمة وصواب الرأى ، فوق تعمق العالم وأصالته . فقد كان ملوك المسلمين فى عصره كأكثر ملوك المسلمين فى كل عصر وزمن فى انحرافهم عن جادة الحكم الصحيح ، فلما سأله أحد الفقهاء عن (السبب فى سوء بخت المسلمين فى

---

(٥) التعريف بابن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا ـ لابن خلدون . تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجى ص ٢٤٦ و ٢٤٧ وانظر النص ايضا فى نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

ملوكهم اذ لم يل أمرهم من يسلك بهم الجادة ، ويحملهم عـلى الواضحة ، بل من يفتر فى مصلحة دنياه ، غافلا عن عاقبة أخراه ، فلا يرقب فى مؤمن الا ولا ذمة ، ولا يراعى عهدا ولا حرمة) أجابه ذلك الجد الفقيه الواعى بقوله : (ان ذلك لأن الملك ليس فى شريعتنا ، وذلك انه كان فيمن قبلنا شرعا ، قال الله تعالى ممتنا على بنى اسرائيل « وجعلكم ملوكا » ؛ ولم يكن ذلك فى هذه الأمة ، بل جعل لهم خلافة . قال الله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض . الآية » وقال تعالى « وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » وقال سليمان « رب اغفر لى وهب لى ملكا » فجعلهم الله تعالى ملوكا . ولم يجعل فى شرعنا الا الخلفاء ، فكان أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وان لم يستخلفه نصا ؛ لكن فهم الناس ذلك فهما ، وأجمعوا على تسميته بذلك ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فخرج بها عن سبيل الملك الذى يرثه الولد عن الوالد ، الى سـبيل الخلافة ؛ الذى هو النظر والاختيار ؛ ونص فى ذلك على عهده ، ثم اتفق أهل الشورى على عثمان ، فاخراج عمر لها عن نبيه الى الشورى ، دليل على انها ليست ملكا ؛ ثم تعين على بعد ذلك اذ لم يبق مثله ؛ فبايعه من آثر الحق على الهـوى ، واصطفى الآخرة على الدنيا ، ثم الحسن كذلك . ثم كان معاوية أول من حول الخلافة ملكا ، والخشونة لينا ، ثم ان ربك من بعدها لغفور رحيم . فجعلها ميراثا . فلما خرج بها عن وضعها لم يستقم ملك فيها . ألا ترى ان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان خليفة

لا ملكا ، لأن سليمان رحمه الله تعالى ـــ رغب عن بنى أبيه ، ايثارا لحق المسلمين ، ولئلا يتقلدها حيا وميتا ، وكان يعلم اجتماع الناس عليه . فلم يسلك طريق الاستقامة بالناس قط الا خليفة . وأما الملوك فعلى ما ذكرت الا من قل وغالب أفعاله غير مرضية)[٦].

وقد كان فى جد المقرى اعتداد بالنفس ، لمكانه من العلم الذى رفعه فوق ما رفعه النسب القرشى ، وكان نقيب الشرفاء بمدينة فاس اذا دخل مجلس السلطان يقوم له كل من فى المجلس اجلالا له حتى السلطان نفسه .. الا جد المقرى . فلما عاتبه النقيب قائلا له : أيها الفقيه ! مالك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله وأهل مجلسه اكراما لجدى ولشرفى ؟ ومن أنت حتى لا تقوم ؟ أجابه أبو عبد الله المقرى جوابا حاضرا مسكتا : أما شرفى فمحقق بالعلم الذى أنا أبثه ، ولا يرتاب فيه أحد ! وأما شرفك فمظنون . ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة سنة . ولو علمنا شرفك قطعا لأقمنا هذا من هنا ـــ وأشار الى السلطان أبى عنان ـــ وأجلسناك !!

وهنا عجز نقيب الأشراف وسكت عن الجواب ..

وقد ورث المقرى الحفيد ، صاحبنا وصاحب نفح الطيب ، هذا الاعتداد بالنفس عن جده الكبير أبى عبد الله المقرى . ولعل هذا الاعتزاز هو الذى جنى عليه فى مسألة تطليقه لزوجته القاهرية الوفائية ابنة السادات ..

---

(٦) نفح الطيب جـ ٣ ص ١٤٧ .

بين مقرة وتلمسان

ان بلدة مقرة التى ينسب اليها آباء المقرى ، هى من أعمال قسنطينة باقليم الجزائر اليوم ، وقد انتقل منها أحد أجداده المسمى عبد الرحمن الى مدينة تلمسان بالجزائر أيضا ، فى صحبة أحد أصحاب الطريق المتصوفين ، وهو الشيخ الولى أبو مدين ، الذى دعا لهذا الجد ولأسرته بالبركة والنماء . ومقرة قرية من قرى الزاب بأفريقية أو بالمغرب الأوسط ، ويقول عنها ياقوت صاحب معجم البلدان (انها مدينة بالمغرب ، فى بر البربر ، قريبة من قلعة بنى حماد ، بينها وبين طبنة ثمانية فراسخ) .

وقد اختلفت الأقوال فى ضبط نطق هذه البلدة المغربية التى اشتهرت بما أنجبته من أجداد للمقرى قبل نزوحهم منها الى تلمسان . فالعالم المؤرخ ابن مرزوق ينطقها ويكتبها بفتح الميم وسكون القاف ، ويرى ان ذلك هو صحة النطق باسمها . وقد ذكر ذلك فى كتاب له شرح فيه الألفية المشهورة لابن مالك ، كما ألف كتابا فى تاريخ جد صاحبنا عنوانه : النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرى . فأكدت السجعة فى عنوان الكتاب — مرة ثانية — رأيه فى ضبط هذا الاسم .

ويرى الأكثرون ان اسم « مقرة » بفتح الميم ، وتشديد القاف ، وهى التسمية التى شاعت ، وطردت تسمية العالم ابن مرزوق ومن ذهب مذهبه . وعلى هذه التسمية ، بالفتح والتشديد ، جرى